وقع كتابه «السيرة الطائرة» بمعرض الكتاب بعمان

ابراهيم نصرالله: كنت دائما مبهورا بما تركه السفر من أثر في تجربتي الكتابية

عمان ـ «القدس العربي»:

وقع الروائي والشاعر الأردني ابراهيم نصرالله كتابه الجديد (السيرة الطائرة| أقل من عدو، أكثر من صديق) الصادرعن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت خلال معرض الكتاب بعمان ،وسط حضور مميز من القراء والكتاب ومحبي نصرالله ، وتشكل هذه التجربة جزءا من سيرة ابراهيم نصرالله الابداعية والانسانية والأثر الذي تركه السفر في كتابته الشعرية والروائية، وحواراته حول القضايا العربية الساخنة والقضية الفلسطينية والصورة الانسانية العميقة للحضارة العربية مع الجمهور الأوروبي ومع مثقفين أوروبيين بين عامي 1985 و 2005، عابرا بكتابه هذا أيضا أهم مفاصل التاريخ العربي المعاصر منذ عام النكبة الفلسطينية حتى اليوم.

يقول نصرالله في مقدمة كتابه: (اذا ما أراد الغرب أن يفهمنا حقا فان عليه أن يكف عن الاستماع لنفسه، وأن يتركنا نتحدث بصدق عما يحدث فينا، وأن يتقبل حقيقة قول الصدق حتى وان لم يأخذ بها في النهاية).

وبعيدا عن البناء السردي الأفقي للسيّر الذاتية يقدم نصرالله اقتراحا فنيا جديدا بكتابته لسيرة غير تقليدية، مستفيدا من خبرته الروائية، سواء من خلال تعامله مع الزمان والمكان أو من خلال سرده غير التقليدي لهذه الأحداث لغة وتأملاً كما انعكست خبرته كشاعر بصورة واضحة في هذا الكتاب الذي ضم عددا كبيرا من النصوص الشعرية التي شكلت جزءا أصيلا من بنية هذا العمل الذي يضيء جوانب كثيرة غير معروفة من حياة ابراهيم نصرالله ورؤاه الأدبية.

هنا الشهادة التي كتبها نصرالله عن هذه السيرة والخبرات التي اكتسبها من السفر :

عنّا وعن روح العالم

روح العالم، كلمتان شغلتاني كثيراً في السنوات الأخيرة، روح العالم أين تكمن هذه الأيام؟! ما الذي يوحّد هذا الخليطَ المرعبَ من الأشلاء والأحلام، من الموت والحياة، طموحَ الحياة في أن يحيا البشرُ بكامل انسانيتهم، أحراراً يمتلكون شمس نهارهم، كما يمتلكون مصيرهم.

يقف الانسانُ اليوم على حافة الجنون في هذه المنطقة بالذات، يقف على حافة انفجاره، مُحتشدا بغضب لا حدودَ له، وهو يراقب ظلامً الغطرسة يفترسُ روحه وجسده ويتسلى به ببطء دامٍ؛ يكفي أن يراقب المرءُ نفسَه، شاعرا كان أم فنانا أم بائع خضار، قليلا، وهو يتتبع فصولَ مأساته الزاحفة، حين يشاهدُ الأخبار، أخبارَ المذبحة المستمرة هنا وهناك، في فلسطين والعراق؛ يكفي ذلك، ليرى نفسه فيما بعد، ودون أن يدري، ذاهبا لتفقّدِ أطفاله واستدعاءِ وجوه أحبته وأصدقائه، وأسماءِ الكتبِ الجميلة التي يودُّ أن يقرأها، والشوارع التي تمنّى أن يسير فيها، والمدن التي أحبها قبل أن يراها.

روح العالم، أين تتجسد الآن؟ أين تسكن؟ وكيف تستطيع اليوم الحفاظَ على براءتها في زمن القتل على الهواء مباشرة، والحفاظ على ارتفاعها في زمن الطائرات العمودية التي تصرّ على أن تسوّي كلَّ شيء بالحضيض، لا بالأرض؟ أين يمكن أن تتوارى هذه الروح القابضة على سحر جمالها، جمرةً، في زمن طائرات الشبح الخفيَّة؟ وكأن العالم كان بحاجة لشياطين جدد بأرديتهم الفضفاضة السوداء، روحِ العالم، أين يمكن أن تتجولَ اليوم في زمن اصطياد الأجنّة على الحواجز العسكرية والحدود المُغلقة التي تُحوّلُ حليب الأطفال الى هدف استراتيجي لدبابات ميركافا وصواريخ توما هوك واليورانيوم المنضب وغير المنضب.

روح العالم، أين هي اليوم في زمن محاكم التفتيش الجديدة، في العصور التي نعيش، العصور التي نموت، العصور الأكثر حلكةً في تاريخ البشر، العصور العار، عصور القتل الجماعي على الهوية والدين ولون العيون، عصور العنصرية التي تتقدّم لاقتياد شعوب بأكملها، ودول بأكملها وتحويلها الى مزارعَ عبيد يعمل فيها البشرُ مقابلَ الحصول على رائحة طعامهم لا أكثر؟

***

كنت أرحل في السنوات الأخيرة بين مدينة ومدينة، وألتقي كتّابا وفنانينَ من عديد دول العالم، يجمعنا مهرجانٌ ثقافي هنا أو ندوة هناك، يجمعنا حديث عابر أو حديث طويل، وكلّما رحنا نُقلّبُ ذاكرتنا باحثينَ عن شيء نبدأ به حديثنا، اكتشفنا أننا أقرب لبعضنا مما كنا نتصوّر، وأننا نعرف بعضنا أحيانا أكثر مما تصوّرنا، لأننا كنا نعرف بعضنا بما نُحبُّ وبمن نُحبّ.

نكتشف أننا سكان وردة واحدة وحلمٍ واحد وذائقة تتلمسُ الضوءَ بتطلّعها للحياة والجمال؛ نكتشف أن ما شكّلنا بشراً، هو ذلك الفيض النّوراني من المبدعين الكبار، نكتشفُ قرابتَنا وأخوتَنا وصفاءَ أرواحنا، حين نكتشف أن هؤلاء المبدعين قد جمّعونا طويلا، قبل أن نلتقي، ومهّدوا لنا الدرب بجمالهم كي لا نفترق من جديد.

يبدأ الحوار فتُشرق أسماءُ جبران خليل جبران وماركيز ومارغريت دوراس وباشو وشكسبير وميشيما ونيرودا وديلان توماس وجاك بريفير وهوميروس وكزانتزاكي وويتمان ونجيب محفوظ وادوارد سعيد وغوته وطاغور ودانتي وسواهم من آباء أرواحنا الأكثر رقة، ونكتشف أن فانسيا ردغريف وجاك نيكلسون وايرين باباس وأنتوني كوين، وكوبولا وفرانشيسكو روزي وفلليني وكيراساوا وتورناتوري وساتا جيت راي وسوزان ساراندون والجميل الشجاع شون بن هم رعاة جمال البشر.

نكتشف أن سينما براديسو ولاعب الشطرنج والساموراي السبعة وشبح الكلب والقطار وأسطورة 1900 وبيردي وزوربا والواشم وابنة ريان بعضٌ من أفلام كثيرة وحّدتنا في مشهد التمزيقِ الكبيرِ لهذا العالم الصغير.

نكتشف منسوب الجمال الذي رفعه عاليا بيكاسو وموديلياني وفرانسيس بيكون وغوغان وبوتيرو في أرواحنا.

قبل أعوام قليلة كانت الشاعرة سارة ماغوايرِ، التي ألتقيها للمرة الأولى، هنا في عمّان، وفي بيتي، حين اجتمعنا مع عدد من الأصدقاء، كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لنا! أن أشياء كثيرة تحبها، موجودة هنا في البيت الذي تحلّ ضيفة عليه في عمان: كانت الموسيقى الرائعة للباكستاني علي خان، وأسطوانات موسيقى الطبيعة التي تسهر الليلَ معها هناك في بيتها في لندن، كان فيلم (الرجل الانجليزي الذي صعد تلة وهبط جبلا) وأفلام المخرج العظيم جون فرانكهايمر صاحب التحفتين السينمائيتين: (رجل الطيور في الكاتراز) و(القطار) على بُعد ذراع منها.

كل هؤلاء جعلونا نعيش في بيت واحد يتّسع لنا كلّنا، وتُغطي مساحته كوكبنا الصغير الجميل البائس.

كل شخص قابلته في هذا الدوران بين كثير من مدن الأرض، اكتشفتُ معه بعد خمس دقائقَ الطريقة التي يمكن أن يتحولَ فيها البشر الى أطفال يفيضون حماسةً، واكتشفتُ أننا كم كنا مخطئين حين ظننا أننا افتقدنا براءتنا للأبد.

هؤلاء، وكثيرون مثلُهم شكّلوا أرواحنا هنا أيضا، منذ طرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى والحلاج وجلال الدين الرومي وعمر الخيّام، ومنذ ملحمة جلجامش وألف ليلة وليلة ورسالة الغفران حتى آخر روائي وشاعر وموسيقي ومبدع على هذه الأرض، أرضنا.

هؤلاء هم روح العالم، روحه التي ترفض أن يكون العالم على هيئة جلادي العالم وقوى ظلامه التي تُفرغ الحضارة من معنى اسمها وسموِّ هذا الاسم.

روح العالم نحن القادرين على أن نُحبَّ ما يستحقُّ الحبَّ وما يشبهه ويسكن فيه.

××

ذات يوم سألني صديقي الروائي فاروق وادي بعد سهرة طويلة تحدثْنا فيها عن أمسيات شعرية أقمتها ولقاءات مع كثير من البشر في غير مكان في هذا العالم: لماذا لا تكتب ذلك كله؟

سنوات كثيرة مرّت على ذلك السؤال، ولكنه ظل حاضراً وباحثا بقوة عن اجابته، الى أن جاءت تلك الرحلة الاستثنائية لكولومبيا، الرحلة التي عدتُ منها مبهورا وسعيدا بما رأيت.

حدّثت صديقي الدكتور فيصل درّاج كثيرا عنها، وفجأة سألني: لماذا لا تكتب عنها، ثلاثة أو أربعة مقالات؟ ان فيها الكثير مما يمكن أن يقال.

ولكنني حين بدأت، كنت أعرف أنني لن أكتب مقالات عن تجربة كولومبيا، بل كتابا، وربما يعود ذلك لميلي الدائم لرؤية الأشياء متّحدة ببعضها البعض، محاورة لبعضها البعض ومكملة لبعضها البعض ومضيئة لبعضها البعض.

وقد كنت دائما مبهورا بما تركه السفر من أثر في تجربتي الكتابية، وأكاد أقول انه كتب معي ربع أعمالي الأدبية، من (براري الحُمّى) الى (الأمواج البرية) الى (مجرد 2 فقط) الى (فضيحة الثعلب) الى (مرايا الخريف) الذي لم يصدر بعد، الى عشرات القصائد المتفرقة وصولا الى هذا الكتاب نفسه!!

ولذا، فان هذا الكتاب بقدر ما هو عن أسفار كثيرة فانه عن (السفر) وعن بشر كثيرين الا أنه عن (الانسان) وعن كتب كثيرة الا أنه عن (الكتابة).

انه في النهاية جزء من سيرتي.. السيرة الطائرة!

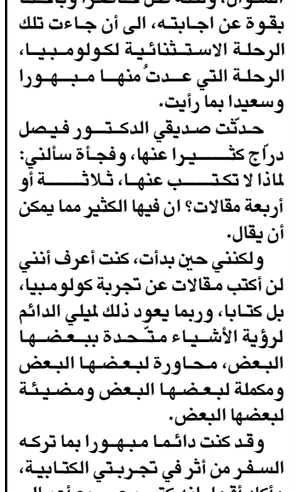

ابراهيم نصر الله (القدس العربي)

«أزمنة من غبار» لناصر عراق:

عن الاحلام العربية المجهضة

عرض: د. عبدالجبار العلمي*

■ ان العنوان «أزمنة من غبار» ذو دلالة صريحة على مضمون الرواية. فهي ترصد تلك الأزمنة البعيدة القريبة من القرن المنصرم، زمن الستينيات فالسبعينيات ثم الثمانينيات والتسعينيات.

يتوقف الراوي عند زمن الستينيات المشبعة بأحلام التغيير على مستوى مصروالوطن العربي برمته، المليئة بالعنفوان والطموحات البعيدة المنال. انه زمن الثورة وتحقيق مجتمع متقدم، تعمه العدالة الاجتماعية، وتنتفي فيه مظاهر التخلف والفقر والحرمان والأمية في ظل نظام اشتراكي يقوده العمال والفلاحون. تشير الرواية الى عهد جمال عبدالناصر الذي كان يحبل بالآمال العريضة في تصور جماعة من الشباب (الطلبة الجامعيين)، بيد أن تلك الآمال آلت كلها الى الفشل بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967.

ان هؤلاء الشباب الثائرين الحالمين الأغرار، انخرطوا في خلايا سرية يتزودون في حلقاتها بأفكار ماركس ولينين متمادين في أحلامهم الغرارة بتحقيق مجتمع اشتراكي تنهار فيه الطبقات، الا أن الواقع الصلد يجعل أكثرهم يفيق من أحلامه، فيهاجر البعض الى دول الخليج أو دول أوروبية بحثاً عن العمل والرزق وتحسين الأوضاع، في حين ينزوي البعض الآخر يجتر آثار الهزيمة. ثم تأتي مرحلة الثمانينيات والتسعينيات بأكثر الهزائم سحقاً لقلوب هؤلاء الفتيان الحالمين، حيث تتعرض العراق للغزو الأمريكي والبريطاني، وتزداد الأمة العربية بؤساً واحساساً بالدونية ومرارة الهزائم.

ويمثل هذه الفئة من الشباب المصري المتحمس الحالم الشخصيات المحورية الآتية :

1 ـ خالد عبدالعزيز: «أكثر المتحمسين والحالمين، اذ بدأت أحلام اليقظة تدغدغ وجدانه، وتنتقل به من مجرد نجم سينمائي لامع أو رسام مشهور الى زعيم ثوري يقود أمة بأسرها لاقامة مجتمع العدالة والحرية» (ص 139).

2 ـ كارم اسماعيل: الذي كان متحمسا للأفكار الثورية والاشتراكية العلمية.

وكان ضمن الجماعة التي يجتمع فيها من أجل العمل على تغيير الأوضاع قبل أن يهاجر الى «قطر» ليعمل في احدى الجرائد في نهاية الثمانينيات. وتشحب علاقته تدريجياً بأصدقائه القدامى (ص: 141) «وكان أول الفارين من سجن المنظمة كما كان يقول دائماً من أجل حياة خالية من العسر» (ص: 184).

3 ـ سلطان السيد : تعرض للاعتقال بسبب نشاطه الثوري، وبعد ثلاثة أشهر من خروجه عقد قرانه على سهى نصارليرحلا الى قطر للعمل بها. وقد ترك خلفه من دون ندم حلم الثورة ومبادئ التنظيم وكتب ماركس ولينين وغيرهما مما له علاقة بلوازم النضال الثوري، قائلا لصديقه عصام كامل: «قد تنفعك .. أما أنا فقد انتهى الأمر بالنسبة الي» (ص 166).

4 ـ عصام كامل: منح بدوره مكتبته الثورية وصور الزعماء الاشتراكيين الى خالد عبدالعزيز، وهاجر الى ألمانيا في آذار (مارس) 1990 بلا عودة.

5 ـ أحمد السرياقوسي: طالب الحقوق المولع بالفن والأدب الذي سيشترك هو وكارم اسماعيل المعجب بأدب يوسف ادريس، وخالد عبدالعزيز المناضل الثوري الحالم في اصدار مجلة تعنى بالأدب والفكر بعنوان «كلمات» ، وهم بعد يدرسون في المراحل الأولى من الدراسة الجامعية (انظر ص: 33).

6 ـ ناصر الأسواني: أكثر أعضاء المجموعة حزناً على بغداد حيث كان له بها علاقة خاصة وذكريات أليمة، اذ عاش بها ثماني سنوات متصلة، أربعاً منها في السجن.

(انظر ص 35).

7 ـ حمدي اسماعيل : «هاجر الى النرويج قبل ثلاث سنوات يائساً من ضبط أحواله في القاهرة» (ص 39).

8 ـ سهى نصار: طالبة الفنون الجميلة حبيبة خالد عبدالعزيز، الا أن علاقته بها رغم طول مدتها، لن تستمر بسبب تردده وعدم حسمه في اتخاذ القرارات (انظر ص 38).

9 ـ مديحة الشيمي: كريمة سالم الشيمي أحد بشوات العهد البائد. فقد أكثر من ألفي فدان في عملية تحديد الملكية في اطار الاصلاح الزراعي. ورغم انتمائها الى الطبقة الاقطاعية، فانها تعد نفسها من أبناء الثورة، وتتحمس لجمال عبدالناصر، وتضرب عرض الحائط بالفروق الطبقية التي بينها وبين عادل عبدالعزيز الذي ينتمي الى طبقة دنيا، فتعجب به، وتحبه.

تتميز الرواية بغناها بالشخصيات، وتلك نماذج منها. انها تمثل جيلا من الشباب العربي المهزوم الذي آمن بوهم الثورة والتغيير، وذلك اعتماداً على أفكار طوباوية لم تستطع الصمود حتى في الواقع الذي أفرزها، والأرض التي نبتت فيها. وبالنظر لهشاشة الأرضية التي كانوا يتكئون عليها، ما لبث الجميع أن لجأ الى الحلول الفردية بعد أن يئسوا من دنو رياح الثورة. فها هو ذا خالد عبدالعزيز الثوري الرومانسي الحالم الأكثر حماسة للأفكار التي كانوا يؤمنون بها باعتبارها وسيلة لاحداث التغيير الجذري في المجتمع، ها هو ذا يعلن انهزامه وتراجعه عن مبادئه بملء فيه. فـ«حين عاد كارم اسماعيل في أول اجازة بعد ثلاثة أعوام من سفره الى الامارات، حاملاً معه زوجة لبنانية شقراء وطفلين جميلين وآلاف الدولارات .. أصبح خالد أكثر قناعة بأن الزمن غير موات لممارسة السياسة حتى وان صحت الأفكار التي يعتنقها» (ص 185).

وحين «ضعضعته الحياة بطلباتها التي لا تنتهي، بينما راتبه الشهري لا يتجاوز 80 جنيهاً، أيقن أن الوقت لم يحن بعد لأن يعتنق العالم الفكر الاشتراكي، كما كان أبوه ينبهه دائماً» (ص 185).

بل حتى وحيد الجيزاوي الذي كان يعتبر المرشد والموجه للجماعة (انظر ص : 128 وما بعدها)، سيهجر التنظيم وسيبحث عن خلاصه الفردي. أما أحمد السرياقوسي، فيتزوج من ابنة خالته ويسافرا معاً الى السعودية، وتعود زوجته وقد ارتدت النقاب.

ان المؤلف، لدى رصده هذه الفئة من الشباب العربي المصري الطموح الى بناء مجتمع أكثر تقدماً وعدالة، انما أراد أن يوجه نقداً لاذعاً لهذا الجيل الذي هو ربما جيله وجيلنا جميعاً، ومفاده أن الطريق الذي سلكوه الى تحقيق أحلامهم الغرارة كان مجانباً لجادة الصواب». قال خالد:

ـ هل تدرك يا عصام أننا كنا نعرف عن تاريخ الاتحاد السوفييتي أكثر بكثير من معرفتنا بتاريخ مصر؟

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد أخطأ قادتنا في الجماعة عندما لم يعيروا تاريخ هذا الشعب ما يستحق من اهتمام، فوقعنا في مطب الجهل بمزاج الناس وكيفية توعيتهم وتنويرهم» (ص 227).

وقد عبر الروائي المغربي عمرو القاضي بكثير من الصدق عن مأساة هذا الجيل في روايته «البرزخ» (1) ما جعل القاص الباحث المغربي أحمد بوزفور يقول في حقها: «النص هو موال جيلي / جيلك : جيل الحلم الوردي الذي سطع في سماء السبعينيات كشهاب، ثم خبا كشهاب أيضاً .. نصك الروائي هذا كان موال هذا الجيل وأنشودته». (2)

لقد كان هم هؤلاء الشباب طيلة صفحات المتن الروائي لا يخرج عن ممارسات ثلاث:

أ ـ تبادل الكتب الثورية المحسوبة على الاشتراكية العلمية مثل «الدولة والثورة» للينين وغيره.

ب ـ الاجتماعات السرية في خلايا لتدارس كتب ماركس ولينين للتزود بالأفكار الواردة فيها من أجل توعية جماهير العمال والفلاحين.

ج ـ اقامة علاقات جنسية بين الجنسين من هؤلاء الشباب المناضل قصد تلبية النزوات والرغبات الشبقية المكبوتة. ونمثل هنا لعلاقة خالد و سهى نصار التي يبدو فيها هذا الأخير فقير التجربة في شؤون الجنس. فهو مثلا لم ير قط في حياته امرأة متجردة (ص 147)، بينما كانت هي ذات تجارب سابقة.

وحتى المجلة التي أنشأها هؤلاء الفتية كانت بعنوان «كلمات»، وهو عنوان له دلالته على هشاشة هذا النضال وقيامه على الأوهام النظرية والكلمات الجوفاء.

وتبقى تلك الأيام والليالي البعيدة القريبة التي قضاها أولئك الشباب يعملون في التنظيمات السرية من أجل التغيير وبناء مجتمعات يسودها التقدم والعدالة، تبقى عبارة عن أزمنة من غبار.

انها رواية واقعية. فيها كثير من ملامح الرواية المحفوظية. تدور أحداثها في فضاءات واقعية معروفة في مدينة القاهرة، فتذكر الشوارع والحواري والمساجد والكباري والمقاهي بأسمائها الحقيقية (شارع الموسكي ـ شارع المعز ـ الغورية ـ مسجد المؤيد ـ كبري المشاة ـ ميدان الأوبرا ـ ميدان الحسين ـ مقهى الفيشاوي ـ حديقة الأزبكية...) أما الزمن الروائي، فيمتد على مسافات زمنية طويلة تبتدئ من أربعينيات القرن الماضي، وتنتهي بسنوات التسعين منه، رصد خلالها المؤلف أحداثاً تاريخية هامة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : تأميم قناة السويس ـ العدوان الثلاثي على مصر ـ هزيمة 67 ـ استقالة جمال عبدالناصر ـ حادث المنصة ـ انتكاس السياحة في مصر اثر أحداث عام 1991 ـ الاعتداء على العراق. وتتميز لغة الرواية بالسلاسة والاعتماد على التصوير الشعري. ورغم أنها باكورة أعمال هذا الروائي (الذي هو أصلا فنان تشكيلي)، الا أنها تمتلك من أدوات الفن الروائي ما يجعلها تقف الى جانب أعمال كبار الروائيين العرب المعاصرين.

* كاتب من المغرب

الهوامش :

** الرواية صادرة عن سلسلة : روايات الهلال، العدد 686، شباط (فبراير) 2006. وتقع في 242 صفحة من القطع المتوسط .

1 ـ عمرو القاضي، البرزخ، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996 م.

2 ـ ظهر غلاف الرواية الواردة أعلاه.

قـــص

بـلا ولا شي..

جمال جبران *

(1)

موسيقاك تطل من النوافذ.

حشرجاتك تبدو متقاطعة مع امتداد الشارع. فيما الحقائب مهملة، عن عمد، بداخل خزانة مغلقة، لم يعد أمر العثور على مفتاحها ممكناً بسبب رداءة الطقس، كما وانشغالك بمحاولة ايجاد الدوافع التي تسببت في عدم عرض قناة mbc2فيلم «موسيقى القلب» لميريل استريب مع أنهم قد أعلنوا عنه مسبقاً وبشكل متكرر. ربما لهذا لم تجد الوقت كيما تتذكر هوية الشخص الذي أخبرك قبل 17 عاماً أن لوردة الجزائرية عنق سكسي يتمتع بمثالية قادرة على اغواء جماعة الذكور. أو ربما كان انشغالك كلية بأمر صندوق بريدك رقم (11610) الذي لم يعد مصنعاً جيداً للرسائل. ويحدث هذا منذ 22 عاماً.. ولكن لا شيء.

كنت راغباً في كتابة رواية من ثمانية فصول لكنك تستيقظ متأخراً وفي قلبك مظاهرة صامتة ضدك. لم تكن مدركاً حينها حقيقة ان الحياة يمكن تدميرها بسهولة تامة لمجرد رداءة موسيقاها التصويرية المصاحبة. لك الآن هناك أمر ادراك كنه علتك. افتراضك حسن نوايا العالم ومسألة ان علي العصري صاحب ثقافة كروية رفيعة. تعتقد ان كل ما يحيط بك يمتلك قدرة اكتشاف ان موسيقى تصويرية من القرن الخامس الميلادي لا تصلح ان تكون مصاحبة لفيلم تدور احداثه في أيامك هذه.

«.. أمي التي لم أرها منذ سنوات، وليس في وسعي زيارتها، تحتاج عيدها بالطبع، واحتاج أنا ركبتها. وأعرف أن الذي يجمع بين هذين العيدين، بالنسبة اليَّ هو العقوق.

الشاعرِ العاق، والابن العاق، لن يحتفل بيومه، عيدُيه يا أمي: لن يرفع سماعة التلفون كي يطلب سيارة الاسعاف للشعر، ولن يرفعها ليقول لك ما يقوله الأبناء لأمهاتهم.

لكن الركبة التي ستحكّينها في غيابي، الركبة التي ستهرشها يداك، ستظل قبلتي». ماهر شرف الدين.

(2)

كشارع يسير على أربعة عجلات يلاحق نهايته بلا روية أو تعقل. أيكون الأمر مكلفاً لو أنك تعيد ترتيب أيامك الماضية دون ان تنتابك حالة فزع، مهما بدا الأمر فادحاً، من اكتشاف ما لا تود؟

للتذكر مذاق الفقد، و أنت مثقل حد الأزرق بفوات، لا يمكن تعويضه أبدا. أأنت بعيد عن دائرتك الى هكذا حد...؟

عن أيامك.. عن الموجع الذي دائماً ما تورطت فيه دون ان تصل نجاة؟!

(3)

كأرملة ترغب في اقتراف نسيانها، لك حياة متروكة لحيثيات الصدمة والعدم.. والاعتياط، أنت، كأن عمراً مهدوراً هنا يقف بمحاذاة الصفحة التي طويتها للتو. وعبثاً تحاول استرجاع ماهية ذلك العطر الذي غدت رائحته أرشيفا غير قابل للاستعادة. خلاص.. لقد صرت رقماً في ذاكرة طُمرت بشكل جيد. كلمات الأغاني التي استمعت إليها في طفولتك لا يمكن استرجاعها. تعلم جيداً أن الأمر ليس بهذه البساطة. لا يترك الماضي وروداً على نوافذ من قد يأتون لاحقاً.

«... يبدو ان الله لا يحبني
كبرت بما يكفي لأصدق:
الله لا يحبني من قديم
منذ كان يحب أستاذ الحساب
ويمنحه بصراً حاداً
وطباشير ملونة
وفرصاً كثيرة لتعذيب طفلة مثلي
لا تستطيع تحديد علاقة
بين رقمين غير متلاصقين...».. كتبت إيمان مرسال.

(4)

كل ما تطلبته حكايتك كان متاحاً. لكنك أدمنت سهرك. مؤشر ساعتك المنبهة ألف التجمد على نقطة بذاتها.

لا ألمح فيك أي رغبة ما لها أن تعمل على وضع تفاصيل ما كان لك على منضدة تشريح. أعلم أنك لا تريد أن تتحول لمجرد عربة لنقل الموتى ولو لمرة واحدة على سبيل التجريب كما ولتمضية وقتك الفائض بفراغه. وتكتفي فقط بمهمة تقمص استيعابك لفكرة ان تكون حياتك مجرد خسارات متوالية صافية. وتقولها بهدوء بال حتى ولو كان ما يلي حياة في عراء.

دربت أصابع قلبك على ذلك.

هكذا يبدو وأمك تعرف. وعليه تجد ان مسألة تركك للبصمة الأولى التي أحدثتها في كراسي الابتدائية أمر لا يقبل أي مراجعة أو اعادة نظر.. أو حتى مجرد ترك مساحة شك ولو ضئيلة فيما ذهبت اليه.

وتبقى فقط مكتفياً بممر طويل معتم ترمي على آخره نظرة حنين مكثفة.. كما وأملك.

مجرد حفرة سوداء عميقة بداخلك. النهايات البيضاء السعيدة لا مكان لها غير أغلفة أفلام الأبيض والأسود قليلة الكلفة. في السينما يحدث ان نخرج منتحرين وبابتسامات غير مشكوك في نزاهتها، عاطفية ودودة، لا تخشى اقتراب موعد حلول نشرة أخبار التاسعة غير الموجزة. على الرغم من أنهم يؤكدون عكس ذلك. وعليه اترك لذاتك سيرها واذهب عميقاً في ترديد نشيد «المارسييز».

«... وبلغت نهاية اللعبة قبل حضور جودو وقبل حضور أي اسم. فالكُتّاب، كما قلت يا بيكيت، لا أخ لهم ويأتون من لا مكان. فكيف لمن يأتي من لا مكان ولا أخوة له أن ينتظر أحداً، كيف لمن لا مكان له أن يفسح مقعداً لأحد ان أتى؟ ولماذا يا صامويل، علمتنا أن نُجلس الغائبين على مقاعدنا، وليس لنا مقاعد ولا أحد سيأتي؟». كتب وديع سعادة بمناسبة سنوية صامويل بيكيت.

(5)

ومرة أخرى تطل أصابعك على فارق ضئيل بين لحظتين. بذاكرة كسولة لارجاء من شفائها، تبقى متروكاً على حافة رصيف يمضي عابروه وبأجساد متلاصقة وبهداوة من لا يخشى فراقاً.

أنت لا تتعلم أبداً. لا ترغب في ادراك يقين أن جمال جبران سيوردك حتفك وهو الغارق في هلامية ممتهنة لدور المنشغل، متلذذاً باحصاء خسائره وعدد انكساراته في المتر المربع الواحد. تنسى دوماً أن العابر لا يمر على ذات الجرح مرتين. لكنك أوغلت ذهابك باتجاه الجزء الأكثر قابلية للتطاير.

«بلا ولا شي» هكذا مارس زياد الرحباني حبه مع كارمن مكتفياً البقاء تحت «الفي» الذي «مش لحدا».. بعد 15 عاماً انفصلا وعلى الرغم من اعترافها ان زياد كان الرجل الذي أحبت دوماً الا أنه كان يرغب في اصلاح أحوال الكون.

تبدو الأشياء الآن واضحة تماماً، على الأقل بالنسبة لأمين الصندوق الذي أمعن في راتبك الشهري تقطيعاً مبرراً ذلك أنك لا تحب الوطن. ألم أقل لك انه السهر الذي أدمنت؟ ما يمنعك من النهوض باكراً لتستطيع الذهاب الى حيث يسكن الوطن لتلقي عليه تحية الصباح كما والتوقيع بين يديه على حافظة الدوام. مسألة بسيطة كهذه ستعيدك كائناً سوياً وعلى علاقة جيدة معه.

(المودليل العاري هو مثال بارز على الغياب القسري للالهام. صورة الجسد ليست الجسد، هي صفته وهو في حال ذهول عن أعماقه. ما نراه من الجسد ونحن في موقع الرقابة، ليس الجسد في بداهة تكوينه بل خوفه من أن يكون المنسيات الايروتيكي.

(6)

أنت تدرك تماماً أن لا شيء يعادل اسماً انثوياً عابراً استمعت اليه في ظهيرة 15 كانون الثاني (يناير) 1989 حال بثهم لبرنامج ما يطلبه المستمعون وذلك الأثر الذي أحدثه فيك لحظة النطق به.

الأشياء الأكثر حميمية تستطيع السير منفردة.. بلا حارس شخصي، على شارع طويل لا يصله احد، تسقط عليه اضاءة بقدر مناسب يعطيك امكانية الاستماع بذهن مفتوح لوقع خطواتها اذ تقترب وتركز نظرتك لحظتها على اللاشيء خشية ان تمر ملامحها في غفلة منك.

صعب هو أمر شعورك بالفوات. لجنة شؤون الأحزاب هنا لا شأن لها بالأمر، لا بد أن تكون واثقاً من هذا. هي مسألة عارضة قد تحدث لأي واقف على تقاطع تتوسطه اشارة مرور ضوئية يبدو أنها توقفت عن احداث اشارة منذ زمن محاولة تجميع ذاتها كيما تنجح في تفسير سر الكيمياء وحجم الفوضى التي اختزنها ذاك الفتى (سيظهر اسمه تالياً) دافعة اياه لكتابة «سأغتسل مراراً لأبدو مختلفاً عن الباصات والمارة ووجهي....». خمسون عاماً وأنت تحاول قول ذلك لكنك لا تستطيع التفريق بين مسألة في كتاب الجبر للصف الثاني الثانوي ص ((16 وبين ما تقوله مريم نور في برنامجها التلفزيوني الخاص بتقديم أفضل النصائح الروحية لمن يود تعلم فن الرقص والنسيان في ثمانية أيام بدون معلم وبلا فواصل اعلانية. وبهذا يصبح قادراً على فتح بريده الالكتروني دونما خشية ملاقاته لرسائل غير مرغوب فيها.

«سأغتسل مراراً لأبدو/ مختلفاً عن الباصات/ والمارة ووجهي/ بعد القات، ولكي/ أدرك خطأ الشارع أتلذذ بقطعة جبن لم أذقها. دانمركية.. وأصلي للجبناء والطرقات وغموض البرد والجوع والحرمان.../ وسأرسم اصراري على البقاء أهديها، للنساء وأبناء الليل، لن اتبع الهراء وأتوضأ بأخلاق الريح/ من رجس الخطابة والمعسكرات لتمتلئ الأيام/ جمالاً وجنوناً، واقع بحب فتاة في السابعة عشرة/ تتسخ بقصائدي.../ لن أبكي لخيبة ما تراه عيني/ بندقية، حكماً بالاعدام/ وخوفاً من عباقرة الميتافيزيقيا، لتظل شهواتهم لذة للشبع، وحظاً لبقاء جيوشهم وامامهم الواعظ، سأغتسل، والليل امرأة/ وخمر للبسطاء، وسنبصق....». هذا ما قام بتدوينه الفتى أوراس الارياني ذات تحليق.

(7)

لا يبدو، بعد كل ما حدث لك، أن حرباً كانت تدور على حافة وسادة بيضاء تضع عليها أرجلك بطمأنينة لحظة تتسلى. لم تترك الحرب على قميصك الأبيض ولو حتى أثرها العابر البسيط. كأنك تنتمي لأولئك الذين لا تعنيهم حكاية. وحدك في السطر الأخير من كتاب الألفة. تخرج من معرض الحكايات كمن لم يعبر أبداً. الحكايات ترفع صور عابريها بخط مكتوب بطريقة ظاهرة. الحكايات تتفرج على الناس كمن وجدت قريباً لها.

هل قلت لك شيئاً؟!

* قاص ومترجم من اليمن

«عبور الروبيكون» مجموعة قصصية لرقية كنعان

عمان ـ «القدس العربي»:

عن دار الشروق في عمّان وبدعم مالي جزئي من وزارة الثقافة في الأردن، صدرت المجموعة القصصية الأولى للكاتبة رقية كنعان بعنوان «عبور الروبيكون»، والمجموعة تقع في 112 صفحة وتتنوع بين قصص سبق لها النشر في الانترنت والمجلات الأدبية المختلفة وأخرى تظهر للمرة الأولى.

من قصص الكتاب: خفقات متقاطعة، أشيلوس، ريموت كنترول، حق الليلة الأولى، عمّان بلا خسائر وغيرها. الكاتبة معروفة بحبها للتنقل بين أكثر من غصن أدبي وتفضل أن لا تحصر بلقب قاصة أو شاعرة الى آخر ما هنالك من ألقاب تخصصية، وهي تمارس الترجمة الأدبية أيضا وسبق ان أصدرت من ترجمتها وعن دار الشروق مجموعة قصصية بعنوان بيت الأشباح للكاتبة الأشهر فرجينيا وولف.

وقد قال عن هذه المجموعة الشاعر محمد جبر الحربي:

«رقية كنعان اسم شعري موجع يشدك الى فضاء الألم الذي عاشته أمة لم يتوقف نزفها، ولكنه في نفس الوقت يحيلك الى أفق الفأل بكاتبة بديعة تعيد للقصة القصيرة جمالها وحضورها الذي أفسده التجريب الذي لا يستند الى قاعدة ثرية، ولا الى ذائقة تتكحل بضوء ارث حميم، ومفردات حياة تختزن من اللون ما لا تستطيع المدارس الفنية جمعه.

في هذه المجموعة الجميلة التي تنطق بلسان عربي مبين، وأرضية عربية تعيدك دونما تقليد لزمن شرق المتوسط المنيفيّ الجليل ألماً وتألقا، سترى حضوراً مدهشاً للحوار الذاتي والخارجي، وستكتشف دواخل النفس القلقة، وترددها حيال التفاصيل مهما كانت صغيرة أو مهملة.

لقد تمكنت القاصة رقية برقيّ، وبشكل يبعث على الفرح الصادق غير العابر، من اذابة مخزونها ومرجعياتها الثقافية داخل البنية القصصية.

وها هي بمهارتها تبعث زوربا للرقص من جديد، حينما تمسح نتوءات الادعاء المعرفي الذي يشكل عائقاً أمام كثير من النماذج القصصية التي نقرأها اليوم، والتي أصبحت معضلة مزعجة أمام تواصل المثقف مع هذا الابداع الرفيع، ناهيك عن القارئ العادي الذي هو في النهاية أس للكتابة، وللفعل الثقافي.

لقد أمسكت رقية بكل أدوات القص، ولكنها وبحذر باد وصلت الى تخوم التحديث دونما بهرجة أو اصطناع.

رقية كنعان اسم سنتذكره دائماً لقاصة ومبدعة تدهش البياض حقا، وتزيد أعيننا دهشة حين نعلم أن هذا هو عملها الأول، وكنزها الذي تريد اشراك الجميع في فتح غموضه، محاره، وذهبه المدفون منذ عصور».